

وَمَقْصِدُنَا فِي طَرِيقِ الْإِصْلَاحِ

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ خَلْفَانَ الْمَعْمَرِيُّ

إن السعيَ إلى الإصلاح والقيامَ به ينشأ عن غريزةٍ فطريةٍ وطبيعةٍ إنسانيةٍ مع كونه فريضةً شرعيةً، فما من كائنٍ حيٍّ إلا ويتعلمُ من خطئه، وربما كرَّرَ المحاولةَ حتى ينجح في تحقيق مطلبه.

فكيف بالإنسان الذي آتاه الله كمالَ العقل، وحُسْنَ التدبير، والطموحَ إلى المعالي، مع استشعاره الخلافةَ في الأرض وتسخير الله له منافعَ هذا الكون وطاقاته، وذلك مقتضى التكريم كما يفهم من قول الحق جل جلاله:

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }

يَدَّ أَنْ هَذَا الْإِصْلَاحَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى بِحَيْثُ يَتَجَرَّدُ صَاحِبُهُ مِنَ الْأَهْوَاءِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَإِلَّا نَزَعَتْ مِنْهُ الْبَرَكَةُ وَحَرُمَ التَّوْفِيقُ وَلَمْ يَتَقَبَّلِ اللَّهُ مِنْهُ،

{ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ }

فَمَا أَرْخَصَهُ مِنْ عَمَلٍ وَمَا أَكْسَدَهَا مِنْ بَضَاعَةٍ حِينَ يَتَغَيُّ بِعَمَلِ الْأَنْبِيَاءِ . الْإِصْلَاحُ . تَحْقِيقُ الشُّهُرَةِ أَوْ جَمْعُ الْمَالِ أَوْ التَّسْلُطُ عَلَى الْعِبَادِ، أَوْ الْإِنْتِصَارَ لِلنَّفْسِ أَوْ نَحْوَهَا مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ تَقْنَعُ لِأَمْثَالِ هَذَا الْفِكْرِ عُقُولُ، وَأَنْ تَطْمَئِنَّ لِدَعْوَتِهِ قُلُوبَ، وَهِيَ هَاتِ أَنْ تَنْقَادَ لِمَنْهَجِهِ نَفُوسَ، أَوْ يَتَحَقَّقَ عَنْ طَرِيقِهِ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَتُمْكِينُ.

{ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }

إن القيام بالإصلاح يقتضي الأخذ بأسبابه، غير أن المعوّل عليه هو توفيق الله تعالى بعد استفراغ الطاقة، إذ الأمر كله بيدِ وحده سبحانه، وهذا هو منهاج الأنبياء

{ إِنِّ أَنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }

فلا مكان هنا للكسالى والمسوفين، ولا توفيق للعصاة والمنافقين، ولا عزاء لدعاة الفتنة والمارقين، فكيف يوفق الله من يعصيه؟ وكيف يُقَرِّبُ من يعاديه؟ وهل ينال التمكين من في قلبه مرض؟ أويتربص بالمؤمنين الدوائر؟

{ إِنِّ اللَّهُ لَا يَصْلَحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ }

قد تشدد رغبة المصلح في النجاح، أو يستطيل الطريق بعد طول وعناء، فيستعجل قطف الثمرة قبل نضجها، ويتجاوز سنن الله في خلقه، ليكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، وقد يصدّم بردة فعل الواقع الذي لم يتهيا بعد لقبول إصلاحه، وربما تذهب جهوده سدى، ويتشت شمله، وترزأ دعوته بسوء تقديره، أو فظاعة جهله بكتاب الله أو سيرة رسوله صلى الله عليه وسلم

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ }

فالإصلاح لا يتحقق فجأة وإنما له مراحل، ولكل مرحلة حكمها، حتى تكتمل حلقاتها وتستوفي شرائطها، وحينها يورق غصنها وتتفتح زهرتها، وتينع ثمرتها بإذن الله.

لم يكن الإصلاح يوماً منوطاً بمعصية فكيف يصلحُ فسادُ بفساد؟
ولا يقبل في تحقيق غاية نبيلة استعمالُ وسيلةٍ خبيثة، فالحق لا
يتوصل إليه إلا بطريق الحق،

وبهذا يظهر زيف دعاوى الإصلاح إذا لبست لبوس الكذب
والغيبة والنميمة، أو قصدت إلى زرع الفتنة بين أفراد المجتمع، أو
إذكاء نار العصية أو الحمية الجاهلية، أو قصدت ابتداءً إتلاف
الأنفس والأعراض والأموال،

كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "الفتنة نائمة لعن الله موقظها"،
فكيف يأمن مصلحُ خيانةٍ من تلطخت أياديه بدماء المسلمين، أنى
يرجو وفاءً ممن عهدَ غدْرَهُ وفجرت خصومته من أعداء الإسلام،
وهم الذين يحتضنون تلك الدعوات المشبوهة، ويمدون بها بالمال،
ويفتحون لها وسائل الإعلام،

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنِّي أَفَوْهُمْ وَمَا تَخْفَىٰ صُدُورُهُمْ
أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }

إن الفساد الإداري والمالي في كل مؤسسة مؤذن بزوالها. عاجلاً أو آجلاً. فهو كدودة الأرضة تنخر الجذر من الداخل وإن بدا ظاهرها قوياً وجميلاً، لكن سرعان ما ينهار لأول ريح أو أدنى لمسة فضلاً عن ضربة،

{ لَا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ مَتَعٌ قَلِيلٌ }
، فكل من يقوم بالفساد . مهما كانت التبريرات . ليس من الولاء للمؤسسة في شيء ، بل هو ناقض لعهداها ، وساعٍ لهدمها ، وشريك في زوالها ، وخادم لعدوها ، علم أو لم يعلم . وكذا من علم بهذا الفساد ولم يقم بواجبه . قدر طاقته . في إيقافه ، وفضح ممارساته ، لكن بالطرق الصحيحة ، مع مراعاة الوقت الكافي لإصلاحه حسبما تقتضيه سنة الله في خلقه ، وذلك ما لا يكون إلا بإرادة قوية صادقة ، وتكاتف الجهود ، وتعاون الجميع ، محفوفاً بتوفيق الله تعالى ،

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ }
{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }

لسنا . بحمد الله . بحاجة إلى دعم أفراد أو منظمات مشبوهة . في طريق الإصلاح . وخاصة من الغرب ، بعدما انكشف الصبح لذي عينين ، فقد فضح طوفان الأقصى ما حاول الغرب إخفاءه من نفاقهم لعقود ، فلم تعد موثيق الإنسان غير حبر على ورق ، وأنها لا تنطبق إلا على دول أو جنسيات معينة ، أو أن وصف الإنسان لا يصدق إلا على العرق الأوروبي ومن دار في فلكه ، ومن عداهم فهو أقرب إلى الحيوان الأعجم ليس له أدنى حق ، بل الواجب القضاء عليه وتخليص العالم من تبعته فما هو إلا حمل زائد يلزم التعجيل في التخلص منه خشية تسببه في إغراق السفينة ،

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ }

، فكيف يغتر بعد هذا كله عاقل أو غيور أو حر كريم بالقيم الغربية المادية أو برسائله المتهاكمة التي طالما استعملت لتبرير الاحتلال (الاستعمار) ، أو تركيع الدول ونهب خيراتها ، أو القضاء على خصوصيتها الحضارية والثقافية ، بل هدم قيمها النبيلة وإنسانيتها الأصيلة ، بعدما تجرد منها الغرب نفسه إلا قليلا .

إن الإصلاح يبدأ بالنفس، فقبل أن يشتغل المرء بعيوب غيره عليه أن يعتني بنواقص نفسه، وهو أدري بها من سواه، فمهما حاول خداع الناس بإظهار محاسنها وإخفاء مساوئها إلا أنه لن يستطيع منافقة نفسه ما دام سويًا، على أنه أولى الناس بالخير الذي يدعو إليه غيره، فهذا مقام التنافس عليه والمسابقة إليه، لا مجال فيه للإيثار إن كان يعقبه ذهاب الدين وخسران الآخرة، { وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى }

كما أن دعوة الآخرين إلى البر مع نسيان النفس بعدم تذكرها والاستمرار على الفجور الذي تلبست به يشي بنقصان العقل، أي الاتصاف بالسفه وعدم الحكمة، كما قيل: "من الحماسة والجهل أن ترى الرأي لغيرك ولا تراه لنفسك" وذلك ما عابه المولى تعالى على بني إسرائيل في قوله:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَعْلُومُ غَيْرُهُ *** هَلَا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لَذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَا *** كَيْمَا يَضَحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ
أَبْدَأَ بِنَفْسِكَ فَانْهَاعَنَّ عَنْ غِيَّهَا *** فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
فَهُنَاكَ يَقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُهْتَدَى *** بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

فحري بمن يبدأ بإصلاح نفسه أن تنجح دعوته دلالة على صدقه وأمانته، فيكون قدوة لغيره. أما من كان يظهر خلاف ما يطن فلن يكون لدعوته ظهور، بل قد يفتضح أمره ولو بعد حين، ويتخلى عنه أتباعه، وتذهب جهوده سدى، فنعوذ بالله من الخذلان.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ () وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ }

يجب أن يكون الإصلاحُ شاملاً حتى يُؤتي أكله، فالذي يهمل بعض الجوانب أو المجالات إنما يتعب نفسه، كمن يهدم ما بنى فيبدأ من جديد أو كمن يرقم على الماء، أو يرسم لوحة جميلة فلا يكملها، وإن كان هناك تعمد لتجاهل مجالات حساسة أو أساسية لما لها من دور في صياغة الحياة أو صناعتها كالمجالات الفكرية أو الروحية أو الخلقية والتي تمثل روح الدين فإن هذا المنهج الإصلاحى مختلٌ أو معتلٌ، ولن يدوم طويلاً لأنه كمن يحرق في سبحة، أو يبنى على غير أساس.

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ }

ذلك أن حصافة الرأي تقتضي ديمومة الإصلاح لا أن يكون كفقاعة هواء، أو مجرد سبق إعلامي للفت الأنظار، ولا يتحقق ذلك إلا بترسيخ جذوره وتشيد أركانه، وتمتين بنائه، حتى يتحمل الهزات الأرضية، أو الرياح العاتية أو محاولات التخريب والهدم، فدعاة الفساد كثر { وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ } وربما يكون لهم نفوذ خفي وعميق، فيخشون ضياع مصالحهم المزعومة، ولذا يسعون بكل ما أوتوا من قوة لنقض كل إصلاح من أساسه قضاءً عليه، أو تشويه صورته خوفاً من انتشار تأييده، أو تمسيحه فلا يهدد نفوذهم أو مصالحهم إن قام.

فعلى القائمين بالإصلاح تعميمُ مجالاته ليكمل بعضها بعضاً، فلا يتهاون بأي فساد مهما تراءى للعين ضحالته، { وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } فترقع الثوب البالي لن يعيد إليه نضارته، بل يجب أن يستبدل به ثوبٌ جديد، على أن الفساد كله مذموم بكل أنواعه ودرجاته ومجالاته، { وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْفُسَادَ }

تارة قد يكون هدمُ بناءٍ قديمٍ أو محاولةُ إصلاحه أشدَّ صعوبةً من تشييد بناءٍ جديدٍ، ذلك أن البناء القديم قد تكون أصوله عميقة في الأرض فليست إزالته من السهولة بمكان، أو قد تكون متشابكة مع بناءٍ آخر، أو خفية فتميزها ثم تفكيكها معقد جدا فيقتضي مزيدا من الجهد والوقت والفطنة.

وهكذا شأن إصلاح الفساد حين تبلى به أمة ليمتد ردحا من الزمن ويشمل مجالات كثيرة، وربما سرى حينا إلى المؤسسات التي ظاهرها محاربته ومحاولة القضاء عليه، بيد أن ذلك كله لا يعفي من مسؤولية القضاء عليه قضاءً مبرما ولو بعد حين، فلا يجوز للباطل أن يبقى وإنما ذلك وصف الحق، نعم للصراع بينهما جولات. وتلك سنة الله. لكن الغلبة في النهاية للحق مهما طال الزمن،

{ كَتَبَ اللَّهُ لِلْأَغْلِبِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }

وعلى أهل الإصلاح أن يوقنوا بهذه الحقيقة، فلا يخالجهم في حسن العاقبة شك أبداً.

وجريا على هذه السنن فإن إتمام بناء الإصلاح بحاجة إلى وقتٍ كافٍ خاصةً مع تعدد المجالات، وتوغل الفساد، أو قلة الإمكانيات، أو ضعف الأنصار، أو سعي المفسدين لإفشال المشروع ولو بالتحالف مع الشيطان، أو استخدام أساليبه القذرة ولو على حساب الدين أو المبدأ أو الوطن تغليباً للمنافع الشخصية أو الفردية الموهومة.



وقد راعى الله تعالى التدرج في التشريع فبدأ بغرس الإيمان قبل المطالبة بالامتثال، وتدرج في المطالبة بالواجبات كالصلاة والصيام ونحوها، وتمهل في المطالبة بالكف عن المحرمات كشرب الخمر، حتى استقرت الأحكام على ما هو معلوم، لأن النفوس إذا اعتادت على أمر فليس من السهل فطمها عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة. رضي الله عنها: "لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم"

والأهم من ذلك كله هو وجود الإرادة الصادقة في الإصلاح الشامل، مع وجود خطة واضحة لتنفيذه بمراحله المختلفة في المدد الزمنية المرسومة لتحقيقها، ثم بداية التنفيذ واقعاً لا مجرد أمني أو وعود كاذبة كسباً للوقت، وبعدها يأتي التوفيق والمدد من الله. بإذنه سبحانه { ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ } { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } وهنا يجب إعانة هذا المصلح وعدم التشويش عليه أو تعطيل مساعيه، بل يعان على إتمام مسؤوليته، فهي مسؤولية الجميع، ويعطى من الوقت ما يكفيه دون إفراط أو تفريط.

وقد بعث أهل الاستقامة وفداً إلى الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز. رحمه الله. لاستيضاح منهجه في إصلاح ما أفسد سلفه من بني أمية. وكانت تركة ثقيلة. فكأنهم استعجلوه فاعتذر لهم وإنما وعدهم بقوله: "لكم على أن أحيي في كل يوم سنة وأميت بدعة"، فرموا استقلوا منه ذلك، لكن العالم الرباني أبا عبيد. رحمه الله. علق على ذلك بحكمته فقال: "ليت القوم قبلوا منه"، فهذا هو منهجنا الذي نسير عليه ونرتضيه. إن شاء الله..



لئن كان من الضروري شمولُ الإصلاح جوانبَ الحياة كلها، وأنواعَ الفساد ودرجاته مهما دقَّت أو جَلَّت فإنه من الحتمي كذلك عمومُه جميع الأفراد، فلا يستغني عن الإصلاح أحد، كما لا يُقبل الفساد من أحد، إذ الجميع مكلفون ومحاسبون أيضاً على جميع أعمالهم،

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ () وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }

على أن الفساد مهما دقَّ له أثره البالغ وإن خفي على مدارك الأكثرين حتى استهانوا به، وإن صدر ممن يُظنُّ به خيراً أو يقتدى به كان أشدَّ ضرراً، فإصلاح هؤلاء لأنفسهم أو ممن يلي أمرهم قد يكون واجباً أو أشدَّ إلحاحاً وأكثرَ فورية، فكأنهم يجسدون المبدأ ذاته، فكانت محاسبتهم ضرورة لئلا يسري الشك أو الطعن إلى الفكرة عينها، ومن هنا وجب عدم استثناء أحد من المحاسبة إن ثبت تورطه في أي فساد، فليس هناك أحد فوق الأحكام،

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ }

أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ }

فلا محاباة لقريب أو حميم على حساب الحق، بل يلزم أن تأخذ العدالة مجراها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"



ولا ريب أن ذلك أدعى للاعتبار، وهي رسالة تحذير لكل من تُسَوَّلُ له نفسه التلاعب بحرمات الناس أو تضييع الحقوق العامة أو الخاصة تحت أي ذريعة أو تبرير ولو فيما يعرف بالفساد المقنن، فَإِنَّ أَنْفَهُ سَيَمَرَّغُ فِي التراب، فالرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال، وقد ارتفعت العصمة بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه، ولم يعد لأحد خصوصية في شيء لذاته، وإنما بقدر عمله أو مسؤوليته بعد الإذن الشرعي، ولا تعلم لأحد حصانة من المساءلة حسب الدليل الشرعي، وبهذا تستقيم الأمور. إن شاء الله.

على أن ذلك لا يعني بحالٍ إلقاء التهم جزافاً وتخوين الناس بعضهم لبعض، وتجرئة الرعاع على أهل الفضل أو المسؤولية إذ الأصل براءة الذمة حسب القاعدة القضائية "البينة على من ادعى واليمين على من أنكر"، والأصل تعجيل القيام بالإصلاح لأهميته، اللهم إلا أن يكون هناك عذر مقبول شرعاً. كما تقدم. وبالله التوفيق.

وَمَقْصِدُنَا
فِي طَرِيقِ الْإِصْلَاحِ